

"لعبة تركيا المزدوجة مع داعش"

عبد اللطيف حجازي*

تعرضت الحكومة التركية لانتقادات بدعم التنظيمات المتطرفة في سوريا وعلى رأسها تنظيم داعش الذي يسيطر على مساحات واسعة من سوريا والعراق، وقد وُجّهت تلك الانتقادات للحكومة التركية من قبل المعارضة التركية خاصة حزب الشعب الجمهوري وحزب الشعوب الديمقراطية وحركة الداعية فتح الله كولن بالإضافة إلى عدد من الدوائر الغربية الرسمية وغير الرسمية حيث تناولت تقارير غربية دلائل على قيام تركيا بالتساهل مع التنظيمات المتطرفة التي اتخذت من حدودها معبراً للمقاتلين لسوريا والعراق ومنفذاً لهريب الأسلحة والبضائع وتسويق البترول الذي يستولى عليه التنظيم من سوريا والعراق. وقد كان لدى الحكومة التركية أسبابها البرجماتية لدعم تنظيم "داعش"، فتركيا ترغب في الحد من النفوذ الشيعي بالعراق ومنع تحول الأكراد السوريين لقوة تمثل تهديداً لتركيا فضلاً عن إسقاط نظام بشار الأسد في سوريا، ورأت الحكومة التركية أن دعم التنظيمات المتطرفة مثل أحرار الشام وجهة النصر وتتنظيم داعش سيحقق تلك الأهداف.

وفي هذا الإطار نشر "منتدى الشرق الأوسط"^١ تقريراً بعنوان "لعبة تركيا المزدوجة مع داعش"، أعده الباحث "بوراك بيكدیل"، تناول فيه الدعم التركي للتنظيمات المتطرفة والعلاقة الأيدولوجية بين تركيا والتنظيمات الإسلامية والصدام بين تركيا وتنظيم داعش وكيفية مواجهة تركيا للانتقادات الغربية بدعمها لتنظيم داعش.

الدعم التركي للتنظيمات المتطرفة في سوريا:

توجد العديد من الشواهد على قيام تركيا بدعم التنظيمات المتطرفة في سوريا والتساهل مع المقاتلين الأجانب الذين يعبرون حدودها للانضمام لتنظيم داعش وغض الطرف عن عمليات تهريب البترول والبضائع والأسلحة لصالح التنظيم، ويمكن تناول بعض من هذه الدلائل فيما يلي:

* باحث بالمركز القومي لدراسات الشرق الأوسط.

^١ منظمة أمريكية غير هادفة للربح، تأسست عام ١٩٩٠، تهدف إلى تعزيز المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط وحماية القيم الغربية من التهديدات الشرق أوسطية.

² Burak Bekdil, "Turkey's Double Game with ISIS Dateline", *Middle East Quarterly*, vol. 22, no. 3, Summer 2015, available at: <http://www.meforum.org/5317/turkey-isis>

قدمت تركيا منذ اندلاع الأزمة السورية دعماً للتنظيمات المتطرفة، وظل هذا الدعم سري إلى أن تمكن فريق من ضباط الدرك التركي في يناير ٢٠١٤ من إيقاف ثلاث شاحنات في جنوب محافظة أضنة محملة بالصواريخ والقذائف ومختلف أنواع الذخيرة برفقة ضباط المخابرات التركية كانت متجهة إلى سوريا، وتحفظ المدعي العام على الشاحنة وطاقمها، إلا أن المحافظ تدخل وأعلن أن هذه الشاحنة تتحرك بناء على أوامر من رئيس الوزراء والذي كان وقتها الرئيس الحالي لتركيا رجب أردوغان، وتم إعادة الشاحنة إلى المخابرات التركية، وشهد أحد سائقي الشاحنات المضبوطة بأنه تم تحميلها من طائرة أجنبية هبطت في مطار أنقرة وأنه تم تحميل العديد من الشاحنات المماثلة من قبل. وفي صيف عام ٢٠١٤ تم تحويل القضية للقضاء العسكري باعتبارها تدخل ضمن الأمور العسكرية وأمرت المحكمة بحظر التداول الإعلامي للحادث، ومؤخراً تم توجيه تهمة التجسس الدولي للضباط الذين أوقفوا الشاحنات.

أحد الدلائل الأخرى على دعم تركيا العسكري للتنظيمات المتطرفة، شهادة "محمد عسكر" - الذي يحاكم أمام المحكمة العليا التركية و ١١ آخرين بتهمة الانضمام لتنظيم داعش- بأن الحكومة التركية أرسلت أسلحة ومعدات عسكرية مختلفة للجماعات المقاتلة في سوريا مثل تنظيم داعش وجبهة النصرة والجيش السوري الحر، وأن بعض هذه الأسلحة استطاع النظام السوري امتلاكها. كما شهد "هيثم طوباليج" -أحد شركاء عسكر الذي قبض عليه في عام ٢٠١٣ أثناء تهريبه الأسلحة عبر الحدود التركية إلى سوريا- بأنه استطاع من خلال اتصالاته داخل تركيا بتسهيل عملية تخزين ونقل الأسلحة التي كان من بينها حوالي ١٠٠ بندقية لحلف الناتو.

كانت الحدود التركية الممتدة مع سوريا والبالغ طولها ٩١٠ كيلو متر بوابة مفتوحة لعبور المتطرفين من كافة أنحاء العالم للالتحاق بتنظيم داعش، فضلاً عن تقديم الحكومة التركية للعلاج الطبي المقدم للجرحى من مقاتلي تنظيم داعش، وهو ما وفر للتنظيم قاعدة دعم لوجستي.

العلاقة الأيدولوجية بين تركيا والتنظيمات الإسلامية:

سعت تركيا منذ اندلاع الثورات العربية بالمنطقة لدعم تيارات الإسلام السياسي وعلى رأسها جماعة الإخوان المسلمين للوصول إلى الحكم، وذلك لتكوين حزام سني من سوريا ومصر وتونس وليبيا يخضع للإمبراطورية التركية الناشئة. وقد تمكنت جماعات الإسلام السياسي من الوصول للسلطة في تلك الدول باستثناء سوريا، مما دفع تركيا لدعم التنظيمات السنية المتطرفة في سوريا لإسقاط نظام الأسد

كأولوية أولى وتقليص النفوذ الشيعي في سوريا ثم إعادة بناء الدولة السورية وفقاً لتصورات أنقرة الأيدولوجية والجيوسراتيجية.

يتسم التحالف الذي نشأ بين تركيا والتنظيمات المتطرفة في سوريا بأنه تحالف مصلي وليس أيديولوجي بخلاف التحالف مع جماعة الإخوان المسلمين الذي يتسم بالطابع الأيديولوجي والمصلي، ورغم التباين الأيديولوجي بين تركيا وتنظيم داعش إلا أن استطلاعاً للرأي قامت به "خدمة الاستقصاء التركية" Metro POLL في أغسطس ٢٠١٤، أوضح أن ١١,٣% من الأتراك لا يرون أن تنظيم داعش منظمة إرهابية، وهو أمر شديد الخطورة فرغم محدودية النسبة إلا أنها تعني أن حوالي ٩ مليون تركي متعاطفين مع تنظيم داعش ويمكن في أي وقت أن يتخذ عشرات الألوف منهم قراراً بالانضمام لداعش والقتال بجانبه في سوريا والعراق، أو شن هجمات بالداخل التركي.

الصدام بين تركيا وتنظيم داعش:

رغم الدعم الذي قدمته تركيا لتنظيم داعش إلا أنها تعرضت لهجمات من قبل التنظيم، كان أولها بعد سيطرة التنظيم على مدينة الموصل العراقية في يونيو ٢٠١٤ حيث هاجم التنظيم القنصلية التركية واحتجز حوالي ٦٤ مواطناً تركياياً من بينهم القنصل العام، وكان هذا الإجراء بمثابة رسالة من التنظيم إلى تركيا بعدم اتخاذ أية إجراءات ضده، ونجحت المخابرات التركية في تحرير الرهائن بعد التواصل مع عدد من زعماء العشائر السنوية العراقية والسورية والتوصل لاتفاق مع تنظيم داعش بتحرير الرهائن مقابل تحرير عدد من المحتجزين المتطرفين لدى تركيا ودفع فدية مالية كبيرة.

وهدد التنظيم بنسف ضريح سليمان شاه في سوريا -جد عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية- والذي يقع ضمن سيادة تركيا بناء على اتفاقية مع فرنسا عام ١٩٢١ أثناء الاحتلال الفرنسي لسوريا وأسر الجنود الأتراك الذين يحرسون الضريح، وهو ما دفع تركيا إلى الدفع بتشكيل عسكري في ٢١ فبراير ٢٠١٥ إلى سوريا ونقل الضريح والجنود الأتراك المحاصرين.

وفي الفترة الأخيرة نفذ التنظيم هجوماً ضد تركيا، الأول في ٢٠ يوليو ٢٠١٥ حيث اتهمت الحكومة التركية تنظيم داعش بتنفيذ هجوم انتحاري ضد تجمعاً للناشطين الأكراد واليساريين تابعين لـ"اتحاد روابط الشباب الاشتراكي"، بمدينة "سوروتش" بجنوب تركيا الواقعة على بعد عشرة كيلومترات من مدينة عين العرب السورية (كوباني)، مما أسفر عن مقتل حوالي ٣٠ وجرح ١٠٠، وذلك رغم أن

التنظيم لم يتبنى تنفيذ الهجوم، والثاني في ٢٣ يوليو ٢٠١٥ حيث هاجم تنظيم داعش مخفر تركي على الحدود مع سوريا بولاية "كيليس" جنوب تركيا مما أدى لمقتل صف ضابط وإصابة جنديين تركيين، الأمر الذي دفع تركيا إلى إعلان انخراطها في التحالف الدولي ضد تنظيم داعش وفتح قواعدها العسكرية أمام طائرات التحالف لقصف مواقع التنظيم في سوريا والعراق.

تعامل تركيا مع الاتهامات الغربية بشأن دعمها لتنظيم داعش:

اعتمدت تركيا على الدبلوماسية العامة لمواجهة الاتهامات الغربية بشأن دعمها لتنظيم داعش، ففي يناير ٢٠١٥ أعلنت تركيا القبض على مواطن تركي بتهمة الانضمام لتنظيم داعش، وفي فبراير ٢٠١٥ أعلنت هيئة الأركان العامة التركية أن قوات الأمن قبضت على ٣٠ أجنبياً ومواطناً تركياً حاولوا الانضمام لداعش، وفي ١٢ مارس أعلن المتحدث باسم وزارة الخارجية التركية عن تعاون تركيا مع حلفاءها الغربيين لتبادل المعلومات الاستخباراتية بشأن المتطرفين الذين يعبرون الأراضي التركية للانضمام لداعش وأن الحكومة التركية لديها قائمة بـ ١٢ ألف اسم من هؤلاء تم القبض على ١١٠٠ شخص منهم وترحيلهم لبلادهم. ورغم تلك البيانات التي أصدرتها الحكومة التركية بشأن مكافحة تنظيم داعش إلا أن أحد سفراء الاتحاد الأوروبي اعتبر هذه التصريحات والبيانات غير صحيحة وأن الاتحاد الأوروبي لديه دلائل قوية على أن مسؤولي مكافحة الإرهاب في تركيا لا يتعاونون بشكل كامل في جهود مكافحة تنظيم داعش.

وقعت تركيا والولايات المتحدة في فبراير ٢٠١٥ اتفاقية خاصة ببرنامج تدريب ٢٠٠٠ عنصر من مقاتلي الجيش السوري الحر بواسطة فريق تركي أمريكي مشترك في أحد القواعد العسكرية التركية مع إمكانية توسيع البرنامج إلى ١٥ ألف متدرب أو أكثر وفقاً لمدى تطور عمليات الجيش السوري الحر، إلا أن الطرفين اختلفا بشأن الهدف الاستراتيجي لهذا البرنامج، فتركيا ترى استهداف نظام الأسد، والولايات المتحدة تعطي الأولوية لاستهداف تنظيم داعش، فضلاً عن القناعة التركية بضرورة وجود منطقة حظر جوي أو منطقة أمنة لإسقاط الأسد.

وفي ٢٤ يوليو ٢٠١٥ أعلنت تركيا انضمامها للتحالف الدولي ضد تنظيم داعش وفتح قواعدها العسكرية أمام طائرات التحالف الدولي بما فيها قاعدة انجريك القريبة من الحدود التركية، إلا أن تحركات تركيا في إطار التحالف الدولي تثير التساؤلات حول الأهداف الحقيقية لانضمام تركيا للتحالف الدولي، حيث ركز الجيش التركي ضرباته ضد مواقع قوات حماية الشعب الكردي التابعة لحزب الاتحاد

الديمقراطي الكردي السوري بشمال سوريا وكذلك حزب العمال الكردستاني في شمال العراق، مما يشير إلى أن تركيا استهدفت من انضمامها للتحالف إلى تحسين صورتها الدولية والإقليمية بعد الاتهامات التي وجهت لها بدعم تنظيم داعش، والتصدي للصعود الكردي بالمنطقة وما يمثله ذلك من تهديد للأمن القومي التركي، ورغم ذلك إلا أن الخلافات التركية الأمريكية لا تزال قائمة بشأن إعطاء الأولوية لإسقاط نظام بشار الأسد أو التصدي لتنظيم داعش فضلاً عن الخلافات بشأن أي جماعات المعارضة يمكن دعمها والتحفيز الأمريكي على رغبة تركيا في إقامة منطقة أمنة بسوريا.

خاتمة:

- اعتمدت الحكومة التركية على التنظيمات المتطرفة في سوريا لمواجهة الدعم الإيراني والروسي لنظام بشار الأسد، على أمل أن تنجح تلك التنظيمات في إسقاط نظام الأسد وتشكيل جبهة من المقاتلين السنة في مواجهة الشيعة، وضمان عدم قيام التنظيم أو الخلايا النائمة له بداخل تركيا بشن هجمات ضدها، دون أدنى اعتبار للأثار السلبية الناجمة عن دعم تلك التنظيمات.
- أثبتت تطورات الأحداث خطأ وجهة نظر الحكومة التركية بشأن إمكانية تحول التنظيمات الإسلامية المتطرفة إلى جماعات إسلامية برجماتية تحقق المصالح التركية في سوريا، فهناك اختلاف كبير بين أفكار وأهداف تلك التنظيمات من جهة وأيدولوجية الحكومة التركية من جهة أخرى.
- توجد تفاهات بين تنظيم داعش وتركيا تتمثل في عدم تعرض تركيا للتنظيم أو مهاجمة قواعده الممتدة على الحدود مع سوريا، مقابل عدم قيام التنظيم بشن هجمات ضد المصالح والأهداف التركية، وهذه التفاهات رغم خرقها في بعض الأوقات إلا أنها لا تزال قائمة إلى حد كبير، فمنذ انضمام تركيا للتحالف الدولي ضد تنظيم داعش ركزت تركيا ضرباتها الجوية ضد معاقل حزب العمال الكردستاني فضلاً عن أن التنظيم لم يشن هجمات ضد تركيا منذ انضمامها للتحالف رغم وجود خلايا نائمة له بالداخل التركي.
- ستستمر تركيا في دعمها لأي جماعة - وإن كانت متطرفة - تعتقد أنها قادرة على إسقاط نظام الأسد وإقامة حكم إسلامي في سوريا وفقاً للنموذج الإخواني.